تفسير سورة الشعراء

للعلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ
أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً
فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ
الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ
أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦) أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)}

يشير الباري تعالى إشارة تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين
الواضح الدال على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية،
بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به، أو حكم
به، لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني، وارتباط الأحكام بحكمها،
وتعليقها بمناسبتها، فكان رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ ينذر

به الناس، ويهدي به الصراط المستقيم، فيهدي بذلك عباد الله المتقون، ويعرض عنه من كُتِبَ عليه الشقاء، فكان يَحْزَنُ حُزْنًا شَدِيدًا على عدم إيمانهم حرصًا منه على الخير ونصحًا لهم، فلهذا قال تعالى عنه:

{لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ} أي: مهلكها وشاقُّ عليها. (١)

{أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} أي: فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، (٢) فإن الهداية بيد الله، (٣) وقد أدت ما عليك من التبليغ، (٤)

(١) قال تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف: ٦].

(٢) قال تعالى: {فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [فاطر: ٨].

(٣) قال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: ٥٦].

(٤) قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور: ٥٤]، وقال: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ} [الغاشية ٢١-٢٢].

وليس فوق هذا القرآن المبين آية حتى ننزلها ليؤمنوا بها، فإنه كاف شاف لمن يريد الهداية،^(٥) ولهذا قال:

{إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً}، أي: من آيات الاقتراح.^(٦)

{فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ} أي: أعناق المكذبين.

(٥) قال تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} [الجاثية: ٦]، وقال: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [المرسلات].

(٦) آيات الاقتراح هي _ كما قال المؤلف في تفسير البقرة [آية ١١٨] _ "التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة، التي تجرأوا بها على الخالق، واستكبروا على رسله، كقولهم: {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [البقرة: ٥٥]، {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ} الآية [النساء: ١٥٣]، وقالوا: {لَوْلا أَنْزَلِ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ...} الآيات [الفرقان: ٧-٨]، وقوله: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا...} الآيات [الإسراء: ٩٠-٩٣]. فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعنت، لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل قد جاءوا من الآيات بما يؤمن بمثله البشر." اهـ

{لَهَا خَاضِعِينَ}، ولكن لا حاجة إلى ذلك، ولا مصلحة فيه، فإنه إذ ذاك الوقت يكون الإيمان غير نافع، وإنما الإيمان النافع الإيمان بالغيب، كما قال تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا} الآية [الأنعام: ١٥٨]. (٧)

{وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ} يأمرهم وينهاهم، ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم. (٨)

(٧) تكملة الآية: {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا} قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ}. وأخرج الشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً: ((لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها))، ثم قرأ الآية.

(٨) المُحَدَّث وصف الإنزال، لا وصف القرآن. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ويُعلم أن المُحَدَّث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي، ولكنه الذي أنزل جديداً، فإن الله كان ينزل القرآن شيئاً بعد شيء، فالمنزل أولاً هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخرًا... وهذه المسألة من أصول أهل الإيمان والسنة التي فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم..." [الفتاوي ١٢/٥٢٢]

{إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ} بقلوبهم وأبدانهم، هذا إعراضهم عن الذكر المحدث الذي جرت العادة أنه يكون موقعه أبلغ من غيره، فكيف بإعراضهم عن غيره، وهذا لأنهم لا خير فيهم، ولا تَنَجُّعُ فيهم المواعظ، ولهذا قال:

{فَقَدْ كَذَّبُوا}، أي: بالحق، وصار التكذيب لهم سَجِيَّةً، لا تتغير ولا تتبدل.

{فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، أي: سيقع بهم العذاب، ويحل بهم ما كذبوا به، فإنهم قد حقت عليهم كلمة العذاب.^(٩)

قال الله منبِّهاً على التفكير الذي ينفع صاحبه: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} من جميع أصناف النباتات، حسنة المنظر، كريمة في نفعها.

(٩) قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [الزمر:

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً } على إحياء الله الموتى بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها.

{ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ }، كما قال تعالى: { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } [يوسف: ١٠٣].

{ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ } الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي، { الرَّحِيمُ } الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى كل حي، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء، حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

{وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ
فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١)}

أعاد الباري تعالى قصة موسى وثناها في القرآن،^(١٠) ما لم يثن غيرها،
لكونها مشتملة على حكم عظيمة، وعبر وفيها نبأه مع الظالمين
والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل
الكتب بعد القرآن.

فقال: واذكر حالة موسى الفاضلة وقت نداء الله إياه، حين كلمه ونبأه
وأرسله، فقال: {أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} الذين تكبروا في الأرض،
وعلوا على أهلها وادعى كبيرهم الربوبية.^(١١)

(١٠) والقرآن كله مثاني، كما قال طاووس مستدلاً بقوله تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ
الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي} [الزمر: ٢٣]، قال: لأن الأنبياء والقصص نُثِيَتْ
فيه.

(١١) {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤]

{قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ} أي: قل لهم، بلين قول، ولطف عبارة: (١٢)
{أَلَا تَتَّقُونَ} الله الذي خلقكم ورزقكم، فتركوا ما أنتم عليه من
الكفر؟

(١٢) قال تعالى: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: ٤٣-٤٤].

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا
يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ
أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) }

فقال موسى عليه السلام، معتذراً من ربه، ومبيئاً لعدوه، وسائلاً له
المعونة على هذا الحمل الثقيل: { قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ
وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي }.

فقال: { رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ
لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي }.
[طه: ٢٥-٣٠]. (١٣)

{ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ } فأجاب الله طلبته، ونبأ أخاه هارون، كما نبأه،
{ فَأَرْسَلُهُ مَعِيَ رِدْءًا } أي معاونا لي على أمري أن يصدقوني.

(١٣) وتكملة الحوار: { اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا *
وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * } قَالَ فَذُ أوتيت سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ
مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى { [طه: ٣١-٣٧].

{وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ} أَي فِي قَتْلِ الْقِبْطِيِّ {فَأَخَافُ أَنْ يُقْتُلُونِ}.

{ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ
فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
{(١٧)}

{ قَالَ كَلَّا } أي لا يتمكنون من قتلك، فإننا سنجعل لكما سلطاناً، فلا
يصلون إليكما بآياتنا، أنتما ومن اتبعكما الغالبون. ولهذا لم يتمكن
فرعون من قتل موسى، مع منابذته له غاية المنابذة، وتسفيه رأيه
وتضليله وقومه.

{ فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا } الدالة على صدقكما وصحة ما جئتما به.

{ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ } أحفظكما وأكلؤكما.

{ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } أي أرسلنا إليك لتؤمن به
وبنا وتنقاد لعبادته وتذعن لتوحيده.

{ أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } فكف عنهم عذابك وارفح عنهم يدك،
ليعبدوا ربهم ويقيموا أمر دينهم.

{قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)
وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩)}

فلما جاء فرعون وقال له ما قال الله لهما لم يؤمن فرعون، ولم يلن،
وجعل يعارض موسى {قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا}، أي: ألم نُنْعِمْ
عليك ونُقِّم بتربيتك منذ كنت وليدًا في مهدك ولم تزل كذلك؟

{وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ} وهي قتل
موسى للقبطي، حين استغاثه الذي من شيعته، على الذي من عدوه
{فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ}، الآية [القصص: ١٥].

{وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} أي: وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا، وسبيلك
سبيلنا، في الكفر، فأقر على نفسه بالكفر، من حيث لا يدري.

{قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)}

فقال موسى: {فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} أي: عن غير كفر، وإنما كان عن ضلال^(١٤) وسفه، فاستغفرت ربي فغفر لي.^(١٥)

{فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ} حين تراجعتم بقتلي، فهربت إلى مدين، ومكثت سنين، ثم جئتم. {فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ}.

(١٤) قال تعالى في وصف أهدى خلقه صلى الله عليه وسلم قبل إنزال الوحي عليه: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [الضحى: ٧]، وقال: {مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ} [الشورى: ٥٢] وعليه فتعميم الرب جل وعلا في الحديث القدسي الذي أخرجه الإمام مسلم: ((يا عبادي! كلكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم!)) يشمل حتى أهدى أنبيائه قبل نبوتهم، والله أعلم.

(١٥) {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [القصص: ١٦].

فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى، اعتراضٌ جاهلٍ أو متجاهلٍ، فإنه جعل المانع من كونه رسولاً أن جرى منه القتل، فبين له موسى، أن قتله كان على وجه الضلال والخطأ، الذي لم يُقصد نفس القتل، وأن فضل الله تعالى غير ممنوع منه أحد، فلمَ مَنَعْتُمْ ما منحني الله من الحكم والرسالة؟ بقي عليك يا فرعون إدلاؤك بقولك: {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا} وعند التحقيق، يتبين أن لا منة لك فيها، ولهذا قال موسى: {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ}!؟

أي: تُدلي عليَّ بهذه المنة لأنك سَخَّرت بني إسرائيل، وجعلتهم لك بمنزلة العبيد، وأنا قد أَسَلَمْتَنِي من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها عليَّ نعمة، فعند التصور يتبين أن الحقيقة أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل، وعذبتهم وسخرتهم بأعمالك، وأنا قد سَلَّمَنِي الله من أذاك، مع وصول أذاك لقومي، فما هذه المنة التي تَمُنُّ بها وتُدلي بها؟

{ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا
تَسْتَمِعُونَ (٢٥) }

{ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ } وهذا إنكار منه لربه، ظلماً وعلوًا، مع
تيقن صحة ما دعاه إليه موسى. (١٦)

قال: { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا }، أي: الذي خلق العالم
العلوي والسفلي، ودبره بأنواع التدبير، ورباه بأنواع التربية. ومن جملة
ذلك أنتم أيها المخاطبون، فكيف تنكرون خالق المخلوقات وفاطر
الأرض والسماوات { إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ }!؟

(١٦) قال تعالى: { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } [النمل: ١٤]،
وقال العلامة السعدي: ليس جحدهم مستندًا إلى الشك والريب، وإنما
جحدهم مع علمهم ويقينهم بصحتها، { ظُلْمًا } منهم لحق ربهم ولأنفسهم،
{ وَعُلُوًّا } على الحق وعلى العباد وعلى الانقياد للرسول. اهـ

فقال فرعون مُتَجَرِّهَمًا،^(١٧) وَمُعْجَبًا لقومه: {أَلَا تَسْتَمِعُونَ} ما يقول
هذا الرجل!؟

(١٧) رجل جَرَّهَامٍ وَمُجَرِّهَمٍ: جاد في أمره، والجُرَّهْمُ الجريء في الحرب وغيرها.

[لسان العرب]

{ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي
أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) }

فقال موسى: { رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } تعجبتم أم لا، استكبرتم
أم أذعنتم.

فقال فرعون معانداً للحق، قادحاً بمن جاء به: { إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي
أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ } حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما
ذهبنا إليه، فالعقل عنده وأهل العقل من زعموا أنهم لم يُخلقوا، أو
أن السماوات والأرض ما زالتا موجودتين من غير موجد، وأنهم
بأنفسهم خُلقوا من غير خالق، والعقل عنده أن يُعبد المخلوق الناقص
من جميع الوجوه، والجنون عنده أن يُثبَتَ الربُّ الخالق للعالم
العلوي والسفلي، والمنعم بالنعمة الظاهرة والباطنة، ويدعو إلى عبادته،
وزين لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام، خفيقي العقول
{ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } [الزخرف: ٥٤].

{قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ
{(٢٨)}

فقال موسى عليه السلام، مجيباً لإنكار فرعون وتعطيله لرب العالمين: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا}، من سائر المخلوقات. (١٨)

{إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} فقد أدت لكم من البيان والتبيين ما يفهمه كل من له أدنى مُسْكَّة (١٩) من عقل، فما بالكم تتجاهلون فيما أخطبكم به؟ وفيه إيماء وتنبية إلى أن الذي رميتم به موسى من الجنون، أنه داؤكم، فرميتم أركى الخلق عقلاً وأكملهم علماً بالجنون، والحال أنكم أنتم المجانين، حيث ذهبت عقولكم لإنكار أظهر الموجودات، خالق الأرض والسموات وما بينهما، فإذا جحدتموه، فأيّ شيء تُثبتون؟ وإذا جهلتموه، فأيّ شيء تعلمون؟ وإذا لم تؤمنوا به وبآياته،

(١٨) فائدة لطيفة للدعاة المتهمين باتهامات باطلة: أن موسى اتهم في نفسه أمام الملأ أنه مجنون، ولم يلتفت إلى الاتهام ولم يدافع عن نفسه، وإنما استمر يدعو إلى الله، {فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل} [الأحقاف: ٣٥].

(١٩) يقال فيه مُسْكَّةٌ من خير، أي: بقية. أفاده في مختار الصحاح.

فبأيّ شيء بعد الله وآياته تؤمنون؟^(٢٠) تالله، إن المجانين الذين بمنزلة
البهائم أَعقل منكم، وإن الأنعام السارحة أهدى منكم!^(٢١)

(٢٠) قال تعالى: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} [الجاثية: ٦].

(٢١) قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ
بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ
هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩]. وقال: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ
أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان:
٤٤].

{ قَالَ لئن اتَّخَذتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)
قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ
يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) }

فلما خَنَقَتْ فرعونَ الحجةُ وعَجَزَتْ قدرتهُ وبيانه عن المعارضة
{ قَالَ } متوعداً لموسى بسلطانه { لئن اتَّخَذتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ
مِنَ الْمَسْجُونِينَ }، زعم _ قبحه الله _ أنه قد طمع في إضلال موسى،
وأن لا يتَّخذ إِلَهًا غيره، وإلا فقد تقرر أنه هو ومن معه على بصيرة من
أمرهم.

فقال له موسى: { أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ } أي: آية ظاهرة جلية، على
صحة ما جئت به، من خوارق العادات.

{ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ }
أي: ذكر الحيات، { مُّبِينٌ } ظاهر لكل أحد، لا خيال، ولا تشبيه.

{ وَنَزَعَ يَدَهُ } من جيبه { فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ } أي: لها نور عظيم،
لا نقص فيه لمن نظر إليها.

{ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ
مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ
فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (٣٧) }

{ قَالَ } فرعون { لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ } معارضاً للحق ومن جاء به: { إِنَّ هَذَا
لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ } مؤه عليهم لعلمه بضعف
عقولهم أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة، لأنه من المتقرر عندهم
أن السحرة يأتون من العجائب بما لا يقدر عليه الناس، وخوفهم أن
قصده بهذا السحر التوصل إلى إخراجهم من وطنهم، لِيَجِدُوا
ويجتهدوا في معاداة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم.

{ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } أن نفعل به؟

{ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ } أي: أَخْرَهُمَا { وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ }
جامعين للناس.

{ يَأْتُوكَ } أولئك الحاشرون { بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ } أي: ابعث في جميع
مدنك التي هي مقر العلم ومعدن السحر من يجمع لك كل ساحر
ماهر عليم في سحره، فإن الساحر يقابل بسحر من جنس سحره.

وهذا من لطف الله أن يُري العباد بطلان ما مَوَّه به فرعون الجاهلُ الضالُّ المضلُّ أن ما جاء به موسى سحر، قيَّضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر، لينعقد المجلس عن حضرة الخلق العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويُقرُّ أهل العلم وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر.

{فَجَمَعَ السَّحْرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ
مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ (٤٠)}

فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن من يجمع السحرة، واجتهد
في ذلك وجد.

{فَجَمَعَ السَّحْرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} قد واعدهم إياه موسى، وهو
يوم الزينة الذي يتفرغون فيه من أشغالهم. (٢٢)

{وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ} أي: نودي بعموم الناس بالاجتماع
في ذلك اليوم الموعود.

{لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ} أي: قالوا للناس: اجتمعوا
لتنظروا غلبة السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فنتبعهم،
ونعظمهم، ونعرف فضيلة علم السحر، فلو وفقوا للحق، لقالوا: لعنا

(٢٢) { فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا * قَالَ
مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَىٰ } [طه: ٥٨-٥٩].

نتبع المحق منهم، ولنعرف الصواب، فلذلك ما أفاد فيهم ذلك، إلا
قيام الحجة عليهم.

{فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ
الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢)}

{فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ} ووصلوا لفرعون، قالوا له: {أئننا لنا لأجرا إن كنا
نحن الغالبين} لموسى؟

{قَالَ نَعَمْ} لكم أجر وثواب، {وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} عندي،
وعدهم الأجر والقربة منه، ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكل مقدورهم في
معارضة ما جاء به موسى.

{ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) }

فلما اجتمعوا للموعدهم وموسى وأهل مصر، وعظهم موسى وذكّرهم، وقال: { وَيَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ }^(٢٣) بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى { [طه: ٦١] ، فتنازعوا وتخاصموا، ثم شجعهم فرعون، وشجع بعضهم بعضًا.

{ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ } أي: ألقوا كل ما في خواطركم إلقاءه، ولم يقيده بشيء دون شيء، لجزمه بطلان ما جاءوا به من معارضة الحق.

{ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ } فإذا هي حيات تسعى، وسحروا بذلك أعين الناس،^(٢٤) { وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ } فاستعانوا بعزة

(٢٣) { يُسْحِتْكُمْ } و { يُسْحِتْكُمْ } قراءتان، وهما بمعنى: يهلككم ويستأصلكم.

(٢٤) قال تعالى: { فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ }

عبد ضعيف، عاجز من كل وجه، إلا أنه قد تجرّب، وحصل له صورةُ
مُلكٍ وجنود، فغرّتهم تلك الأُبّهة،^(٢٥) ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة
الأمر.

أو أن هذا قسم منهم بعزة فرعون، والمقسم عليه، أنهم غالبون.

{فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ} تبتلع وتأخذ {مَا يَأْفِكُونَ}
فالتفت جميع ما ألقوا من الحبال والعصي، لأنها إفك وكذب وزور،
وذلك كله باطل، لا يقوم للحق، ولا يقاومه.

(٢٥) الأُبّهة: العظمة والكبر، يقال: تأبّه الرجل، إذا تكبّر. [العين]

{فَأَلْقَى السِّحْرَةَ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧)
رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ
لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩)}

فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة، تيقنوا لعلمهم أن هذا ليس
بسحر، وإنما هو آية من آيات الله، ومعجزة تُنبئُ بصدق موسى
وصحة ما جاء به.

{فَأَلْقَى السِّحْرَةَ سَاجِدِينَ} لربهم.

{قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} وانقمع الباطل في ذلك
المجمع، وأقر رؤسائه ببطلانه، ووضح الحق وظهر، حتى رأى ذلك
الناظرون بأبصارهم، ولكن أبي فرعون، إلا عتوا وضللاً وتمادياً في
غيه وعناداً، فقال للسحرة: {آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ}.

يتعجب ويعجب قومه من جراتهم عليه وإقدامهم على الإيمان من
غير إذنه ومؤامرتة.

{ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ } هذا وهو الذي جمع السحرة، وملأه الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى، ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم جاءوا من السحر بما يحير الناظرين ويهيلهم، ومع ذلك فراج عليهم هذا القول، الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه، فلا يُستنكر على أهل هذه العقول أن لا يؤمنوا بالحق الواضح والآيات الباهرة، لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي شيء كان إنه على خلاف حقيقته صدقوه.

ثم توعده السحرة فقال: { لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ } أي: اليد اليمنى، والرجل اليسرى، كما يفعل بالمفسد في الأرض،^(٢٦) { وَلَا صَلْبِنَكُمْ أَجْمَعِينَ } لتحتزوا وتذلوا.

(٢٦) قال تعالى: { إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [المائدة: ٣٣].

{قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)}

فقال السحرة حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته: {لَا ضَيْرَ} (٢٧) أي: لا نبالي بما توعدتنا به، {إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا} من الكفر والسحر، وغيرهما {أَنَّ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} بموسى من هؤلاء الجنود، فثبتهم الله وصبرهم.

فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدهم به، لسلطانه واقتداره إذ ذاك، ويحتمل أن الله منعه منهم.

(٢٧) قال البغوي: {لَا ضَيْرَ} لا ضرر.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ (٥٢)}

ثم لم يزل فرعون وقومه مستمرين على كفرهم، يأتيهم موسى بالآيات
البيّنات، وكلما جاءتهم آية، وبلغت منهم كل مبلغ، وعدوا موسى
وعاهدوه لئن كشف الله عنهم ليؤمننّ به، وليرسلن معه بني إسرائيل،
فيكشفه الله، ثم ينكثون،^(٢٨) فلما يئس موسى من إيمانهم، وحقّت
عليهم كلمة العذاب، وآن لبني إسرائيل أن ينجيهم من أسرهم، ويمكن
لهم في الأرض، أوحى الله إلى موسى:

(٢٨) قال تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَذَكَّرُونَ} * فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا
بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} * وَقَالُوا
مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا
قَوْمًا مُّجْرِمِينَ} * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} * فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ} [الأعراف: ١٣٠ -
١٣٥]. قال البغوي: {يَنْكُثُونَ} ينقضون العهد.

{أَنْ أَسْرَ بَعَادِي}، أي: اخرج بني إسرائيل أول الليل، ليتمادوا
ويتمهلوا في ذهابهم.

{إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ} أي: سيتبعكم فرعون وجنوده.

ووقع كما أخبر، فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سرّوا كلُّهم
مع موسى.

{فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ
قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ
{(٥٦)}

{فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} يجمعون الناس، ليوقع بني
إسرائيل، ويقول مشجعاً لقومه: {إِنَّ هَؤُلَاءِ} أي: بني إسرائيل
{لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ} ونريد أن ننقذ غيظنا في هؤلاء
العبيد، الذين أبقوا منا.

{وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ} أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء
للجميع، والمصلحة مشتركة.

{فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨)
كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)}

فخرج فرعون وجنوده، في جيش عظيم، ونفير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعدار، الذين منعهم العجز.

قال الله تعالى: {فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} أي: بساتين مصر وجناتها الفائقة، وعيونها المتدفقة، وزروع قد ملأت أراضيهم، وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم.

{وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} يُعْجِبُ النَّاظِرِينَ، وَيُلْهِى الْمُتَأَمِّلِينَ، تَمَتَّعُوا بِهِ دَهْرًا طَوِيلًا وَقَضَوْا بِلذَّتِهِ وَشَهْوَاتِهِ عُمْرًا مَدِيدًا عَلَى الْكُفْرِ وَالْفُسَادِ وَالتَّكْبَرِ عَلَى الْعِبَادِ وَالتَّيْبَةِ الْعَظِيمِ. (٢٩)

{كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا} أي: هذه البساتين والعيون، والزروع، والمقام الكريم، {بَنِي إِسْرَائِيلَ} الذين جعلوهم من قبل عبيدهم، وسخروا في

(٢٩) تَأَهَّجَ الرَّجُلُ بِتَيْبَةٍ تَيْبًا وَتَيْبًا إِذَا تَكَبَّرَ.

أعمالهم الشاقة، فسبحان من يؤتي المُلْك من يشاء، وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ
يشاء، وَيُعِزُّ مَن يَشَاءُ بِطَاعَتِهِ، وَيُذِلُّ مَن يَشَاءُ بِمَعْصِيَتِهِ. (٣٠)

(٣٠) قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ
مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ} [آل عمران: ٢٦].

{فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ
مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)}

{فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ} أي: اتبع قومُ فرعون قومَ موسى وقتَ شروق
الشمس، وساقوا خَلْفَهُمْ مُحْتَثِينَ عَلَى غَيْظٍ وَحَنَقٍ قَادِرِينَ.

{فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ} أي رأى كل منهما صاحبه، {قَالَ أَصْحَابُ
مُوسَى} شاكين لموسى وحزينين {إِنَّا لَمُدْرِكُونَ}.

ف{قَالَ} موسى، مثبتًا لهم ومخيرًا لهم بوعده ربه الصادق: {كَلَّا}
أي: ليس الأمر كما ذكرتم، أنكم مدركون، {إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}
لما فيه نجاتي ونجاتكم.

{فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)}

{فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ} فضربه.

{فَانْفَلَقَ} اثني عشر طريقًا.

{فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ} أي: الجبل {الْعَظِيمِ}، فدخله موسى وقومه.

{وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ} في ذلك المكان {الْآخِرِينَ}، أي: فرعون وقومه، قَرَّبْنَاهُمْ، وأدخلناهم في ذلك الطريق، الذي سلك منه موسى وقومه.

{وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ} استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد.

{ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ} لم يتخلف منهم عن الغرق أحد.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً عَظِيمَةً، عَلَىٰ صِدْقٍ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
وَبَطْلَانٍ مَا عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ.

{وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ} مع هذه الآيات المقتضية للإيمان، لفساد
قلوبكم.

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} بعزته أهلك الكافرين المكذبين،
وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين.

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ
(٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١)}

أي: واتل يا محمد على الناس نبأ إبراهيم الخليل وخبره الجليل في هذه الحالة بخصوصها، وإلا فله أبناء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه وأفضلها هذا النبأ المتضمن لرسالته، ودعوته قومه، ومحاботه إياهم، وإبطاله ما هم عليه.

ولذلك قيده بالظرف، فقال: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ}

{قَالُوا} متبجحين^(٣١) بعبادتهم: {نَعْبُدُ أَصْنَامًا} ننحتها ونعملها بأيدينا.

{فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ} أي مقيمين على عبادتها في كثير من أوقاتنا.

(٣١) بَجَّحَهُ فَتَبَجَّحَ، أَي: فَرَّحَهُ فَفَرَّحَ. [مختار الصحاح]

{قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ

يَضُرُّونَ (٧٣)}

فقال لهم إبراهيم، مبيناً لعدم استحقاقها للعبادة: {هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ}، فيستجيبون دعاءكم، ويفرجون كربكم، ويزيلون عنكم كل مكروه؟

{أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ}، فأقروا أن ذلك كله غير موجود فيها، فلا تسمع دعاء، ولا تنفع، ولا تضر، ولهذا لما كسرها، وقال: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ} [الأنبياء: ٦٣]، قالوا له: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ}، أي: هذا أمر متقرر من حالها، لا يقبل الإشكال والشك.

{قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)}

فلجأوا إلى تقليد آبائهم الضالين، فقالوا: {بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}، فتبعناهم على ذلك، وسلطنا سبيلهم، وحافظنا على عاداتهم، فقال لهم إبراهيم: أنتم وآباءكم كلكم خصوم في الأمر، والكلام مع الجميع واحد.

{أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي} فليضروني بأدنى شيء من الضرر، وليكيدوني، فلا يقدرن.

{إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} هو المنفرد بنعمة الخلق، ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية.

ثم خصص منها بعض الضروريات، فقال:

{وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ
(٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ
لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)}

فهذا هو وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يُفرد بالعبادة والطاعة، وتُترك
هذه الأصنام، التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تُمرض، ولا تشفي، ولا
تطعم ولا تسقي، ولا تميت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها، بكشف
الكروب، ولا مغفرة الذنوب.

فهذا دليل قاطع وحجة باهرة لا تقدرُونَ أنتم وآباؤكم على معارضتها،
فدل على اشتراككم في الضلال، وترككم طريق الهدى والرشد. قال
الله تعالى: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ} [الأنعام:
٨٠]، الآيات. (٣٢)

(٣٢) قال تعالى: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا
تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ*
وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ
سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا
إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ* وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ

عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ { [الأنعام: ٨٠-

. [٨٣]

{رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي
لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ
(٨٥) وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)}

ثم دعا عليه السلام ربه فقال: {رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا} أي: علمًا كثيرًا،
أعرف به الأحكام، والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام،
{وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} من إخوانه الأنبياء والمرسلين.

{وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} أي: اجعل لي ثناء صدق،
مستمر إلى آخر الدهر. فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم
والحكم ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين،
وجعله محبوبًا مقبولًا معظما مثني عليه، في جميع الملل، في كل
الأوقات.

قال تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} [الصافات: ١٠٧-١١١]. (٣٣)

{وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ} أي: من أهل الجنة، التي يُورثهم الله إياها، فأجاب الله دعاءه، فرفع منزلته في جنات النعيم.

{وَأَعْفِرْ لِأبي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ} وهذا الدعاء بسبب الوعد الذي قال لأبيه: {سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} [مريم: ٤٧]، (٣٤)
قال تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ

(٣٣) {وتركنا عليه في الآخِرِينَ} أي: وأبقينا عليه ثناءً صادقاً في الآخِرِينَ، فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه فيه محبوب معظم مثني عليه.

[المؤلف]

(٣٤) {سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} أي: لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة، بأن يهديك للإسلام، الذي تحصل به المغفرة، {فإنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} أي: رحيماً رءوفاً بحالي، معتنياً بي، فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له أنه عدو لله وأنه لا يفيد فيه شيئاً، ترك الاستغفار له وتبرأ منه. [المؤلف]

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ { [التوبة:
[١١٤]. (٣٥)

{وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ} أي: بالتوبيخ على بعض الذنوب، والعقوبة
عليها والفضيحة، بل أسعدني في ذلك اليوم الذي {لَا يَنْفَعُ} فيه
{مَالٌ وَلَا بَنُونَ} * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ {، فهذا الذي ينفعه
عندك، وهذا الذي ينجو به من العقاب ويستحق جزيل الثواب. (٣٦)

والقلب السليم معناه الذي سلم من الشرك والشك ومحبة الشر
والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه
بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه،
وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله وهواه تابعا لما جاء عن الله.

(٣٥) {لَأَوَّاهٌ} أي: رجَّاع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء والاستغفار
والإنابة إلى ربه. [المؤلف]

(٣٦) قال الإمام البخاري في كتاب التفسير من صحيحه: باب {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
يُبْعَثُونَ}، ثم أخرج بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال: ((يلقى إبراهيم أباه، فيقول: يا رب! إنك وعدتني أن لا
تخزيني يوم يبعثون، فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين.))

ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم وما فيه من الثواب والعقاب،
فقال:

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١)
وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ
إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥)}

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ}، أي قربت، {لِلْمُتَّقِينَ} ربهم، الذين امتثلوا أوامره
واجتنبوا زواجره واتقوا سخطه وعقابه.

{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ} أي برزت واستعدت بجميع ما فيها من العذاب.
{لِلْغَاوِينَ} الذين أوضاعوا في معاصي الله وتجروا على محارمه وكذبوا
رسله وردوا ما جاءوهم به من الحق.

{وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ
يَنْتَصِرُونَ} بأنفسهم، أي: فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم
وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم.
{فَكُفُّوا فِيهَا}، أي: ألقوا في النار، {هُمُ}، أي: ما كانوا يعبدون،
{وَالْغَاوُونَ} العابدون لها.

{وَجُنُودٍ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} من الإنس والجن الذين أزهَم إلى المعاصي أَزًّا، (٣٧) وتسلَّط عليهم بشركهم وعدم إيمانهم، فصاروا من دعائه والساعين في مرضاته، وهم ما بين داع لطاعته ومجيب لهم ومقلد لهم على شركهم.

(٣٧) قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} [مريم: ٨٣]، وقال المؤلف: وهذا من عقوبة الكافرين أنهم لما لم يعتصموا بالله، ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به ووالوا أعداءه من الشياطين، سلطهم عليهم، وقبضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أَزًّا، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجًا، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبِّحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم ويتشربها، فيسعى فيه سعي المحق في حقه، فينصره بجهدته ويحارب عنه، ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل، وهذا كله جزاء له على تولّيه من وليه وتولّيه لعدوه، جعل له عليه سلطان، وإلا فلو آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان، كما قال تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل: ٩٩-١٠٠].

{قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
(٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ
(٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
{(١٠٤)}

{قَالُوا}، أي: جنود إبليس الغاوون لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها:
{تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} في العبادة
والمحبة والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه، فتبين لهم حينئذ
ضلالهم، وأقروا بعدل الله في عقوبتهم، وأنها في محلها، وهم لم
يسووهم برب العالمين إلا في العبادة، لا في الخلق، بدليل قولهم:
{رب العالمين}، إنهم مقرون أن الله رب العالمين كلهم الذين من
جملتهم أصنامهم وأوثانهم.

{وَمَا أَضَلَّنَا} عن طريق الهدى والرشد، ودعانا إلى طريق الغي والفسق
{إِلَّا الْمُجْرِمُونَ}، وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار. (٣٨)

{فَمَا لَنَا} حينئذ {مِنْ شَافِعِينَ} يشفعون لنا لينقذونا من عذابه.

{وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ}، أي: قريب مصافٍ ينفعنا بأدنى نفع، كما جرت
العادة بذلك في الدنيا، فأيسُّوا من كل خير، وأبلسُوا بما كسبوا،
وتمنَّوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحًا:

{فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً}، أي: رجعة إلى الدنيا وإعادة إليها.

{فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}: لنسلم من العقاب ونستحق الثواب.

هيهات! هيهات! قد حيل بينهم وبين ما يشتهون! وقد غلقت منهم
الرهون!

(٣٨) أخرج الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء مرفوعًا: ((إن أخوف ما أخاف
على أمتي الأئمة المضلون))، وروي من حديث أبي ذر مرفوعًا: ((غير
الدجال أخوف على أمتي من الدجال الأئمة المضلون))، انظر: سلسلة
الأحاديث الصحيحة (برقم ١٥٨٢ و ١٩٨٩).

{إِنَّ فِي ذَلِكَ} الذي ذكرنا لكم ووصفنا: {لآيَةً} لكم، {وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}، مع نزول الآيات.
{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

{ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا
تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
(١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١١٠) }

يذكر تعالى تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما رد عليهم وردوا عليه،
وعاقبة الجميع، فقال: { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ } جميعهم، وجعل
تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين، لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة
واحدة، وأخبار واحدة، فتكذيب أحدهم تكذيب بجميع ما جاءوا به
من الحق. (٣٩)

كذَّبوه { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ } في النسب (٤٠) { نُوحٌ }، وإنما ابتعث الله
الرسل من نسب من أرسل إليهم، لئلا يشتمزوا من الانقياد له، ولأنهم

(٣٩) ووجه ذلك أن نوحًا _ عليه السلام _ لم يسبقه رسول، ومع ذلك سجل الله

على قومه التكذيب بجميع الرسل ولم يأتهم غير نوح! راجع تفسير الإمام

ابن كثير وتفسير العلامة ابن العثيمين تلميذ المؤلف رحمهم الله تعالى.

(٤٠) وفي عصرنا من يستدل بهذه الآية على جواز اتخاذ غير المسلمين إخوانًا لنا

وخطابهم بذلك، وقد سئل العلامة ابن العثيمين رحمه الله عن مخاطبة

يعرفون حقيقته، فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم مخاطبًا
بألطف خطاب، كما هي طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم:
{أَلَا تَتَّقُونَ} الله تعالى، فتركون ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان،
وتخلصون العبادة لله وحده.

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}، فكونه رسولًا إليهم بالخصوص يوجب لهم
تلقِّي ما أرسل به إليهم، والإيمان به، وأن يشكروا الله تعالى على أن

الكافر بيا أخي، فقال: "فهذا حرام، ولا يجوز، إلا أن يكون أخًا له من
النسب أو الرضاع، وذلك لأنه إذا انتفت أخوة النسب والرضاع لم يبق إلا
أخوة الدين، والكافر ليس أخًا للمؤمن في دينه، وتذكر قول نبي الله تعالى
نوح: {رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} قَالَ
يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ {هود: ٤٥-٤٦}. وأما قول: "صديق"، و"رفيق"
ونحوهما، فإذا كانت كلمة عابرة يقصد بها نداء من جهل اسمه منهم،
فهذا لا بأس به، وإن قصد بها معناها توددًا وتقربًا منهم، فقد قال الله تعالى:
{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ
كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} [الحشر: ٢٢]. فكل
كلمات التلطف التي يقصد بها الموادة، لا يجوز للمؤمن أن يخاطب بها
أحدًا من الكفار. " [فتاويه ٣/٢٠٣-٤٣]

خصهم بهذا الرسول الكريم. وكونه أمينًا يقتضي أنه لا يتقول على الله، ولا يزيد في وحيه، ولا ينقص، وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا} فيما أمركم به، وأنهاكم عنه، فإن هذا هو الذي يترتب على كونه رسولًا إليهم أمينًا، فلذلك رتبته بالفاء الدالة على السبب، فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع، فقال: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ}، فتكلفون من المغرم الثقيل.

{إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} أرجو بذلك القرب منه والثواب الجزيل، وأما أنتم فمُنِّيْتِي ومنتهى إرادتي منكم النصح لكم وسلوكم الصراط المستقيم.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا}، كرر ذلك _ عليه السلام _ لتكريه دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك، كما قال تعالى: {فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا} [العنكبوت: ١٤]، وقال: {رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا} [نوح: ٥-٦]، الآيات.

{قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)}

فقالوا ردًا لدعوته ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة: {أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}، أي: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس وأراذلهم وسقطهم.^(٤١) بهذا يعرف تكبرهم عن الحق وجهلهم بالحقائق، فإنهم لو كان قصدهم الحق، لقالوا _ إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته _ : "بيّن لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك."

ولو تأملوا حق التأمل لعلموا أن أتباعه هم الأعلون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة والأخلاق الفاضلة، وأن الأردل من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها، ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكامل.

وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل، يعرف فساد ما عنده بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه، فقوم نوح لما سمعنا عنهم أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: {أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}،

(٤١) السقط بفتحيتين رديء المتاع. [مختار الصحاح]

فبنوا على هذا الأصل الذي كل أحد يعرف فسادَه ردَّ دعوتَه، عرفنا
أنهم ضالون مخطئون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوتَه العظيمة
ما يفيد الجزم واليقين بصدقَه وصحة ما جاء به. (٤٢)

(٤٢) وقد عد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب _ رحمه الله _ هذه الخصلة من
مسائل الجاهلية، التي تتجدد في أعداء الأنبياء، حيث قال: "الثامنة
الاستدلال على بطلان الشيء بأنه لم يتبعه إلا الضعفاء"، وذكر هذه الآية.

{قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنَّ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥)}

فقال نوح عليه السلام: {وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ*} إِنَّ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ}، أي: أعمالهم وحسابهم على الله، إنما علي التبليغ، وأنتم دعوهم عنكم، إن كان ما جئتم به الحق فانقادوا له وكلُّ له عمله. (٤٣)

{وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ}، كأنهم _ قَبَّحهم الله _ طلبوا منه أن يطردهم عنه تكبرًا وتجبرًا، ليؤمنوا، فقال: {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ}، فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما يستحقون الإكرام القولي

(٤٣) قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور: ٥٤]. وقال: {إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا* لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا* وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: ٩٣-٩٥]. وقال: {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} [الانفطار: ١٩].

والفعلي، كما قال تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: ٥٤].

{إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ}، أي: ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله ومجتهد في نصح العباد، وليس لي من الأمر شيء، إن الأمر إلا لله.

{قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَه يَأْنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)}

فاستمر نوح عليه الصلاة والسلام على دعوتهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاً، فلم يزدادوا إلا نفوراً،^(٤٤) و{قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَه يَأْنُوحُ} من دعوتك إيانا إلى الله وحده:

{لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}، أي: لنقتلك شر قتلة بالرمي بالحجارة، كما يقتل الكلب، فتبّاً لهم! ما أقبح هذه المقابلة! يقابلون الناصح

(٤٤) من سورة نوح: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠)}

الأمين الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم بشر مقابلة! لا جرم لَمَّا انتهى ظُلْمُهُمْ^(٤٥) واشتد كفرهم دعا عليهم نبيهم بدعوة أحاطت بهم، فقال: { رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا } [نوح: ٢٦]، الآيات. (٤٦)

(٤٥) يريد: لما بلغ ظلمهم منتهى درجاته وأشد ما يكون... والله أعلم.

(٤٦) وليس من شأن المرسلين الدعاء على قومهم، ولنوح _ عليه السلام _ عذر في ذلك، وهو ما ذكره تعالى في قوله: { وَأَوْحِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } [هود: ٣٦]، فكان على حالة خاصة قد بين الله له أن فرصة الإيمان لقومه قد انتهت، وحين وقت عذابهم. وهو أول أولي العزم _ عليه السلام _ قدوة في الصبر والتحمل في الدعوة إلى الله، ومع أنه معذور في دعائه على قومه، فمن شدة تواضعه الصادق وحيائه من ربه عز وجل أنه يندم ويتأثم من دعائه، كما جاء في حديث الشفاعة في الصحيح، يقول يوم القيامة: ((وإنه قد كانت لي دعوة، دعوتها على قومي! نفسي، نفسي، نفسي! اذهبوا إلى غيري...)) صلوات الباري وسلامه عليه! فحسنت الأبرار سيئات عند المقربين!

وهنا: { قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا }، أي:
أهلك الباغي منا، وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة، ولهذا قال: { وَنَجِّنِي
وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }.

{ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ }، أي: السفينة، { الْمَشْحُونِ } من
الخلق والحيوانات.

{ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ }، أي: بعد نوح ومن معه من المؤمنين: { الْبَاقِينَ }،
أي: جميع قومه.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ }، أي: نجاة نوح وأتباعه وإهلاك من كذبه، { لآيَةً } دالة
على صدق رسلنا وصحة ما جاءوا به وبطلان ما عليه أعداؤهم
المكذبون بهم.

{ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ } الذي قهر بعزه أعداءه فأغرقهم بالطوفان.

{ الرَّحِيمُ } بأوليائه، حيث نجى نوحًا ومن معه من أهل الإيمان.

{كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا
تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
(١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ
مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ
(١٣٠)}

أي: كذبت القبيلة المسماة عادًا رسولهم هودًا،^(٤٧) وتكذيبهم له
تكذيب لغيره، لاتفاق الدعوة.

{إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ} في النسب {هُودٌ} بلطف وحسن خطاب: {أَلَا
تَتَّقُونَ} الله، فتركون الشرك وعبادة غيره.

(٤٧) قوم عاد هم أولاد عاد بن إرم [بن عوص بن سام بن نوح] الذين كانوا يأوون
إلى العمد في البر، كما قال تعالى: {ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات
العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد} [الفجر: ٦-٨]، وذلك لشدة
بأسهم وقوتهم، وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل.
[ابن كثير بتصريف يسير]

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} أي: أرسلني الله إليكم، رحمة بكم، واعتناءً بكم، وأنا أمين، تعرفون ذلك مني، رتب على ذلك قوله:

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا}، أي: أدُّوا حق الله تعالى، وهو التقوى، وأدوا حقي، بطاعتي فيما أمركم به، وأنهاكم عنه، فهذا موجب لأن تتبعوني وتطيعوني وليس ثمَّ مانع يمنعكم من الإيمان، فلست أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم أجرًا، حتى تستثقلوا ذلك المغرم.

{إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} الذي رباهم بنعمه، وأدرَّ عليهم فضله وكرمه، خصوصًا ما ربَّى به أوليائه وأنبياءه.

{أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ} أي: مدخل بين الجبال {آيَةً} أي: علامة {تَعْبَثُونَ} أي: تفعلون ذلك عبثًا لغير فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم.

{وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ} أي: بركا ومجابي للمياة {لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد.

{وَإِذَا بَطَشْتُمْ} بالخلق {بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} قتلاً وضرباً وأخذ أموال، وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة، وكان الواجب عليهم أن

يستعينوا بقوتهم على طاعة الله، ولكنهم فَخَرُوا، واستكبروا، وقالوا:
{ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً } [فصلت: ١٥]،^(٤٨) واستعملوا قوتهم في معاصي
الله، وفي العبث والسفه، فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك.

(٤٨) قال تعالى: { فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ } [فصلت: ١٥ -
١٦]. والريح الصرصر هي الريح العظيمة الشديدة لها صوت مزعج كالرعد
القاصف، قاله المؤلف.

وأيام نحسات أيام مشؤومات. قال الضحاك: أمسك الله عنهم المطر ثلاث
سنين، ودامت الرياح عليهم من غير مطر. [البغوي]

{ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ
(١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) }

{ فَاتَّقُوا اللَّهَ } واتركوا شرككم وبطركم { وَأَطِيعُوا } حيث علمتم أني
رسول الله إليكم، أمين ناصح.

{ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ } أي: أعطاكم { بِمَا تَعْلَمُونَ } أي: أمدكم بما لا
يُجهل ولا ينكر من الإنعام.

{ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ } من إبل وبقر وغنم { وَبَنِينَ } أي: وكثرة نسل، كثر
أموالكم، وكثر أولادكم، خصوصاً الذكور، أفضل القسمين. هذا
تذكيرهم بالنعمة، ثم ذكرهم حلول عذاب الله، فقال:

{ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }، أي: إني _ من شفقتي عليكم
وبري بكم _ أخاف أن ينزل بكم عذاب يوم عظيم، إذا نزل لا يرد،
إن استمررتم على كفركم وبغيكم.

{قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)}

فقالوا معاندين للحق مكذبين لنبيهم: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ} أي: الجميع على حد سواء، وهذا غاية العُتُوِّ، فإن قوماً بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظ الله التي تُذيب الجبال الصُّمَّ الصِّلابَ، وتتصدع لها أفئدةُ أولي الألباب، وُجودها وعدمها عندهم على حد سواء، لقوم انتهى ظلمهم، واشتد شقاؤهم، وانقطع الرجاء من هدايتهم، ولهذا قالوا:

{إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ}، أي: هذه الأحوال والنعم، ونحو ذلك، عادة الأولين، تارة يستغنون، وتارة يفتقرون، وهذه أحوال الدهر، لا أن هذه محن ومنح من الله تعالى، وابتلاء لعباده.

{وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ}، وهذا إنكار منهم للبعث، أو تنزُّل مع نبيهم وتهكُّم به: إنا على فرضِ أننا نُبعث، فإننا كما أدركت علينا النعم في الدنيا، كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بُعثنا.

{فَكَذَّبُوهُ} أي: صار التكذيب سجية لهم وخلقًا، لا يردِّعهم عنه رادعٌ، {فَأَهْلَكْنَاهُمْ} {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ { [الحاقة: ٦-٨]. (٤٩).

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} على صدق نبينا هود _ عليه السلام _ وصحة ما جاء به وبطلان ما عليه قومه من الشرك والجبروت.

{وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}، مع وجود الآيات المقتضية للإيمان.

(٤٩) {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ}، أي: قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف. {عَاتِيَةٍ}، أي: عتت على خزائنها، على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عاد وزادت على الحد، كما هو الصحيح. {حُسُومًا}، أي: نحسًا وشرًا فظيماً عليهم فدمرتهم وأهلكتهم. {صَرْعَى}، أي: هلكى موتى. {كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}، أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية الساقط بعضها على بعض. [المؤلف]

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ} الذي أهلك بقوته قوم هود على قوتهم
وبطشهم.

{الرَّحِيمُ} بنبيه هود حيث نجاه ومن معه من المؤمنين.

{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) }

{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ } القبيلة المعروفة في مدائن الحجر. (٥٠)

{ الْمُرْسَلِينَ } كذبوا صالحًا عليه السلام، الذي جاء بالتوحيد، الذي دعت إليه المرسلون، فكان تكذيبهم له تكذيبًا للجميع. (٥١)

{ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ } في النسب، برفق ولين: { أَلَا تَتَّقُونَ } الله تعالى وتدعون الشرك والمعاصي.

(٥٠) الْحِجْر: تقع بوادي القرى بين المدينة والشام. وهو من

وقد سئلت اللجنة الدائمة عن زيارة مدائن صالح بغرض النظرة بها، ومشاهدة الآثار بها، فقالوا بتحريم ذلك، مستدلين بقول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: ((لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين؛ لئلا يصيبكم ما أصابهم.)) أخرجاه. انظر فتاويهم (٣٩٣/٢٦).

(٥١) كما سبق بيان ذلك عند قصة نوح [آية ١٠٥].

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ} من الله ربكم، أرسلني إليكم، لطفًا بكم ورحمة،
فتلقوا رحمته بالقبول، وقابلوها بالإذعان.

{أَمِينٌ} تعرفون ذلك مني، وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بي، وبما
جئت به.

{وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} فتقولون: يمنعنا من اتباعك أنك تريد
أخذ أموالنا، {إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: لا أطلب الثواب
إلا منه.

{أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧)
وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا
فَارِهِينَ (١٤٩)}

{أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا
هَضِيمٌ}، أي: نضيد كثير، أي: أتحسبون أنكم تتركون في هذه
الخيرات والنعم سدى تتنعمون وتمتعون كما تتمتع الأنعام وتتركون
سدى لا تؤمرون ولا تنهون وتستعينون بهذه النعم على معاصي الله؟!
{وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ}، أي: بلغت بكم الفراهة والحذق
إلى أن اتخذتم بيوتاً من الجبال الصُّمِّ الصِّلاب؟!}

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١)
الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)}

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ} الذين تجاوزوا
الحد.

{الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}، أي: الذين وصفهم
ودأبهم الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والدعوة إليها إفسادًا لا
إصلاح فيه. وهذا أضر ما يكون، لأنه شر محض، وكان أناسًا عندهم
مستعدون لمعارضة نبيهم موضعون في الدعوة لسبيل الغي فنهاهم
صالح عن الاعتراض بهم، ولعلمهم الذين قال الله فيهم {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ
تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} [النحل: ٤٨].

{قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا
فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤)}

فلم يفد فيهم هذا النهي والوعظ شيئاً، فقالوا لصالح: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ
الْمُسَحَّرِينَ}، أي: قد سحرت، فأنت تهذي بما لا معنى له.

{مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا}، فأبي فضيلة فُفُتْنَا بها حتى تدعونا إلى
اتباعك؟

{فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، هذا مع أن مجرد اعتبار حالته
وحالة ما دعا إليه من أكبر الآيات البينات على صحة ما جاء به
وصدقه، ولكنهم من قسوتهم سألوا آيات الاقتراح التي في الغالب لا
يفلح من طلبها لكون طلبه مبنياً على التعنت، لا على الاسترشاد.

{قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦)}

فقال صالح: {هَذِهِ نَاقَةٌ} تخرج من صخرة صَمَاءَ مَلْسَاءَ، ترونها وتشاهدونها بأجمعكم.

{لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ}، أي: تشرب ماء البئر يوماً، وأنتم تشربون لبنها، ثم تَصُدُّرُ عنكم اليوم الآخر، وتشربون أنتم ماء البئر. {وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ} بعقر أو غيره.

{فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، فخرجت واستمرت عندهم بتلك الحال، فلم يؤمنوا واستمروا على طغيانهم.

{فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)}

{فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ} وهي صيحة نزلت عليهم، فدمرتهم أجمعين.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} على صدق ما جاءت به رسلنا، وبطلان قول معارضيتهم، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

{كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ
أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى
رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥)
وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ
{(١٦٦)}

{كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ} قال لهم وقالوا كما قال من قبلهم،
تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم، وكانوا مع شركهم
يأتون فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، يختارون نكاح
الذكران، المستقدر الحبيث، ويرغبون عما خلق لهم من أزواجهم
لإسرافهم وعدوانهم.

{قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَه يَأْلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ
إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ
(١٦٩) فَنجَّينَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ
(١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ
مَطَرُ الْمُنذِرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
(١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)}

فلم يزل ينهاهم حتى {قَالُوا} له {لَئِن لَّمْ تَنْتَه يَأْلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
الْمُخْرَجِينَ}، أي: من البلد، فلما رأى استمرارهم عليه {قَالَ إِنِّي
لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ} أي: المبغضين له الناهين عنه، المحذرين.

{رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ} من فعله وعقوبته، فاستجاب الله
له: {فَنَجَّينَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}، أي: الباقيين
في العذاب، وهي امرأته.

{ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا}، أي: حجارة من سجيل.
{فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ}، أهلكهم الله عن آخرهم.